لـــوط عليه السلام

رحل إبراهيمُ عن مصر، واصطحب معه في سَفَره لوطاً، ورجعا من هذه البلاد بمالٍ كثير وخير مَوْفُور، ونزلا بتلك الأرض المقدَّسة، ثم ضاقت بأنعامهما بُقعةُ الأرض التي نزلا بها. فنزح لوط عن مَحَلة عمه إبراهيم واستقرّ به المقام بمدينة سُدُوم[1].

وقد كان أهلُها ذَوِي أخلاق فاسدة، وَنَوَايا سيئة، لا يتعفّفُون عن معصية، ولا يتناهَوْن عن مُـنْـكَرٍ فعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سَرِيرَة[2]، يقطعون الطّرِيق، ويحونون[3] الرَّفيق، ويتربّصُون لكل سَارٍ، فيجتمعون عليه من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ، ويسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يَندُب حظه، ويبكي ضياعَ ماله، لا يردَّهم عن ذلك دِين، ولا يصدُّهم حَياء، ولا يَرْعَوُون لوعظ واعظٍ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

وكأنَّ نفوسَهم الظامئة إلى الإثم لم ترْوِها تلك الذنوب، وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجرام لم تَكِفها هذه القبائح، فابتدعوا فاحشةً لم يُسْبَقوا إلى اجترامها، وتعاطوْا محرَّماً ما كان يَدُورُ بخلدِ أحد اقترافُهُ، فكانوا يأتون الذكْرَان من العالمين، ويذرون ما خلق الله من النساء فلا يقربونهنَّ.

وليتهم ستروا بليّتهم، أو حاولوا الخلاصَ من عارِهَا، والبعدَ عن شرِّها. ولكنهم كانوا يحملون الناسَ على مُشَايَعتهم، ويدعونهم إلى المَتْح[4] من قَلِيبهم[5] وتمادَوْا في ضلالهم، حتى فشتِ المنكرات، وكثرت المُوبقات، وأشْرِبَتْ قلوبُهُمْ حبُّ الفاحشة.

ولما أصاب القوم ما أصابهم، واستحبُّوا الضلالةَ على الهدى، وآثروا الغوَاية على

---

(١) سَدُوم: مدينة من مدائن قوم لوط.
(٢) السريرة: ما يُكتَم ويُسر.
(٣) يحونون: يذلون.
(٤) متح الماء: نزعه واستخرجه.
(٥) القليب: البئر.

الرُّشد، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصي، ويُزيِّنُ لهم الشهوات ـ أوْحىٰ الله إلى لوط أن يدعوَهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم، فأذّنَ فيهم بدعوته، وأعلن بينهم رسالته، ولكن آذانهم وَقَرَت[١]، وعيونهم عَمِيَتْ، وقلوبهم غُلِّفت، فاندفعوا في شرورهم، واستمروا على فجورهم، وتمادَوْا في طُغْيانهم، ولم يَرْتَدِعُوا عن غيِّهم، بل حدَّثتهم نفوسهم الأمَّارة بالسوء، وسَوَّلت لهم عقولهُم. التي أضاعها العبَث، وتملّكها الشرّ، أن يُـخْرجوا رسولَهم من بين ظَهْرَانَيهم. فتوعَّدوه ومن آمن معه بالإبعاد عن قريتهم، مع أنه لم يرتكب جُرْماً إلا بُعْدِه عن مساوئهم، ولم يقترف إثماً إلا أنه تطَهّر من دَنَسِهم، ونَعَى عليهم طريقهم، ونَأى عن قبائحهم ودعاهم إلى الطريق السويِّ، وهداهم إلى الصراط المستقيم.

ولما رأى منهم مَيْلاً عن طاعته خوَّفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره واستخفوا بوعيده، فألحَّ عليهم بالعِظَات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يُـقلعوا عمَّا كانوا فيه، بل ازدادوا تعلُّقاً به ورغبة فيه، وتحدَّوه أن يأتِيهم بالعذاب وَيُـنْزِل عليهم مَا يستحقون من عقَاب.

* * *

سأل لوط ربّه أن ينصرَه على هؤلاء القوم المفسدين، ويُوقعُ بهم العذابَ الأليم، وطلب إليه أن يجزيَهُمُّ على كفرهم وعنادهم، ويعاقِبَهم على بَغْيهم وفجورهم فَهُم الداءُ الوبيل[٢] الذي يخَاف انتشاره، والعضوُ المريض الذي لا بدَّ من استئصاله.

ألم يَعِيثوا في الأرض فساداً؟! ألم يصدُّوا عن سبيل الله، ويُصِمُّوا آذانهم عن طريق الخير، ويتنكَّبُوا سُبُلَ الهداية؟!

استجاب الله دعاءه وحقق سؤاله؛ وبعث ملائكته إلى هذه القرية الظّالم أهلُها، ليُنزلوا بهم ما يستحقّون من عقاب، فعاجُوا[٣] أوّلاً بدار إبراهيم، فحسبهم عابري سَبيل، فقدَّمَ إليهم خيرَ ما يُـقَـدَّم للأضياف؛ ولكن أيديهم لم تمتد إلى قِرَاه[٤] فنكِرَهم

(١) وَقَرَت الأذن: ثَقُلت أو صُمَّت.
(٢) الوبيل: الشديد.
(٣) عاج بالمكان: أقام.
(٤) قرا الضيف: أضافه وأكرمه. القِرى: ما يقدم للضيف.

وَأوجَسَ منهم خيفة، قالوا: لا تخف؛ ولم يُزَايلوا المكان حتى بَشَّرُوه بغُلام عليم.

وما أظنّ إبراهيم قد أفْرَخ[١] رَوْعه أو سكن وَجِيب[٢] قَلْبِه؛ لذلك استفسرهم عما يقصدون، وقال: ما خطبُكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنّا أرسلنا إلى القوم الذين لم يستجيبوا لدعوةِ لوط فكانوا من المجرمين، وسنُنْزِلُ بهم عذاباً أليماً وباساً شديداً، جزاء ما اقترفوا من فجور واعتادوا من شرور.

عَظم حُزْنُ إبراهيم، وأخذ يجادلهم في قوم لوط، ويرجو تأخير البلاء، وتأجيلَ وقوع العذاب، ولعله كان يأمُل منهم الإنابةَ إلى الله، والإقلاع عمَّا يرتكبون من الذنوب، والرجوع عما يقترفون من الفواحش.

وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يُمَسَّ لوط بأذى، وهو مؤمِنٌ مُنْكِرٌ لما يرتكبون، ساخط على ما يجترحُون، وهُوَ لذلك ليس أهلاً للعقاب، ولا مستحقاً للعذاب، فأمره الملائكةُ أن يهَوِّنَ على نفسه، ويخفِّف من حُزْنِه، ويدَعَ الإنابةَ إلى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يُصِرُّون على المعصية، ويستمسكون بالخطيئة، وأنبئوه أن لوطاً لن يُصيبَهُ أذًى ولن يمسه عذاب، وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته، فإنّ هَوَاها معهم ورأيها تبعٌ لرأيهم.

ولما فَصَلت[٣] الملائكة عن إبراهيم أتَوْا أرض سَدُوم في صورة شُبَّان حسان، وفيما هم يهمُّون بدخول هذه القرية عرضَتْ لهم جاريةٌ[٤] تستسقي الماء لأهلها فسألوها أن تُضِيفَهم، فأشفقت من قومها عليهم، واستضعفت نفسها عن حمايتهم، وأرادت أن تستنجدَ بأبيها في الدفاع عنهم، فأمهلتْهُم حتى تذهبَ إليه فتستشيره في أمرهم. وأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أرادكَ فتيانٌ على باب المدينة؛ ما رأيت وجوهَ قوم قط أصبحَ من وجوههم، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومك فيفضحوهم.

هذا الوالد هو لوط، وهذه الجاريةُ هي ابنته. وما أظنّ لوطاً إلا دُهِشَ لهذه

---

(١) أفرخ روعه: خلا قلبه من الهم.
(٢) وجيب قلبه: اضطرابه وخفقانه.
(٣) فصل: خرج.
(٤) الجارية: الفتية من النساء.

المفاجأة، وأقبل على ابنته يسائلها عن أمرهم، ويستزيدها الحديث في شأنهم، ويستلهمُها خير السُّبل التي ينتهجها، وأفضلَ الطرق التي يتبعها.

ولعله قد تردد في السعي لاستقبالهم، وحار في قبول ضيافتهم، وحدثته نَفْسُه أن يبعث إليهم بعُذره، وأن يُظْهرهم على أمره، فيكْفوه مدافعته لقومه، ويتركوه وشأنه ولكن الأرْيحية[١] هزَّته، والمروءة دفعته، فاستصغر هذه الصعاب، واستخفّ بتلك العقبَات، وخرج إليهم خُفية، وهو ينأى عن عيون القوم، ويحاول أن يَصِل إلى ضَيفه قبل أن يعترضوا طريقه ويصدُّوه عن سبيله، فقد حالُوا بينه وبين العالمين، وأمرُوهُ ألاّ يستضيفَ أحداً، ونَهَوْه أن يأوي في منزله طارقاً، وكأني بهم قد حسبوه داءً وبيلاً، فخافوا انتشاره وظنوه خطراً جسيماً فخشوا طغيانه، وما هو إلا عَدُوٌّ لقبائحهم، ومنكرٌ لمفاسدهم.

تسلّلَ لوط خفيةً، وسار حتى التقى بالملائكة، فاستقبلهم ببشره، وتلقاهم بوجهه، ثم دعاهم إلى مصاحبته، وتقدّمهم نحو بيته، ولكن الوساوسَ جاشت في نفسه، والمخاوفَ دبّتْ إلى قلبه، فضاق ذَرْعاً بضيافتهم، وخَافَ أن يعلم قومه بنزولهم، ويَقفُوا[٢] على دخيلة أمرهم، فيهبُّوا إليه مسرعين، وهو ليس في مَنعة منهم، أو في عصبية[٣] تمنُعُه من اعتدائهم.

ولكنه سار بهم حتى نزلوا بِدَارِه، وما أظنه إلا بالغ في كتمان أمرهم وتَستَر خوفاً أن يتسرَّبَ إلى القوم خَبَرهم، وكانت امرأته تساير القومَ في طريقتهم، فأذاعت خَبَرَهم، وأعلمت قومها بأمرهم، وسرعان ما جاءُوا إليه يُهْرَعُون، وأقبلوا عليه مستبشرين.

وفزع لوط حين رأى القومَ قد اجتمعوا يُرِيدون الفاحشةَ، ويرغَبُون في المنكر، فناشدهم تقوى الله، ودعاهم إلى سَتر مخازيهم، والكفِّ عن مساوئهم ولكنهم جميعاً فجرةٌ سفهاء، وكفرة أغبياء، لذلك لم يستمعوا إلى نصيحته، ولم ينزلوا على إرادته، فأغلق البابَ دونهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون.

---

(١) الأريحية: الإرتياح للندى والنشاط إلى المعروف.

(٢) قفا الأثر: تبعه.

(٣) العصبية: المحاماة والمدافعة عمن يلزمك إمره.

ويخيل إليَّ أن القوم قد غاض[١] الحياءُ من وجوههم، أو أصابهم مَسٌ في عقولهم فتدافعُوا وراء المنكرات، وتظاهروا على القبائح!

ولما رأى لوطٌ أنهم لم يطيعوا إشارته، ولم يُصِيخُوا لدعوته، أرشدهم إلى غِشْيَان نسائهم اللائي جعلهنَّ الله حلالاً لهم، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادة السيئة، ويحذَرُوا عاقبةَ هذه القبائح المنكرة؛ ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولم يَرْعوُوا، بل ازدادوا تمسُّكاً بما جاءوا له، وتعلقاً بما شُغِفَتْ نفوسُهم الدنيئة به، وتشبثاً بما عزموا عليه من فاحِشة، وقالوا: يا لوط، لقد علمت ما لنا في بَنَاتِكَ من حقٍّ، وليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلمُ ما نريد!

ضاقت بلوطٍ السُّبل، وسُدّت أمامه أبوابُ الأمل، فأخذه من الكَرْبِ والبُرَحاء[٢] ما جعله يتَلهَّفُ على نجاة أضيافه، وخلاصهم من قومه، فقال: لو أن لي بكم قوة لاستطعتُ أن أمنعَ عُدْوَانكم، وآمن شَرَّكم وأقف في وجوهكم ولو كنتُ في مَنَعَة وعِزَّة لقَوَّمتْ معوجَّكم، وألَنتُ قنَاتكم.

ولكن القَوْم قد أعمتْهُمُ الضلالة، فلم يستبينوا سبيلَ الرشد الذي دلهم عليه ولم يَحِيدُوا عن طريق الشر الذي حاول أن يصدَّهم عنه فهم في نزْوَةِ الشرِّ مندفعون، وإلى اقتراف الإثم يتسابقون.

فغشيته سحابةٌ من الحزن، وتملَّكَتْه ثورةٌ من الغضب، حين يئس من رَدَّهم، وناله الإعياءُ والكلال من صَدّهم، ورآهم قد اقتحموا منزله وقهروه، وبحثوا على ضَيْفه وفضحوهُ، وهو لم يألُ جهُداً في نصحهم، ولم يترك سبيلاً لردهم.

ولما رأى الملائكةُ ما هو فيه من الوجد والحزن رَدُّوا لهفته، وسكَّنوا رَوْعه وقالوا: يالوط، إنَّا رسلُ ربك، جئنا لإنقاذك، ودفع العدوان عنك، فلن يَصِلَ هؤلاء الكَفَرَةُ إليك، وإنهم لمهزومون.

وما عَتَّموا[٣] أن تولاهم الفزع والرعب، فتولوا هاربين متوعِّدين.

---

(١) غاض: ذهب وغاب أو قَلَّ.

(٢) البُرَحاء: الشدة.

(٣) عَتَّم الشيء: أخره وبطأه، يقال ما عَتَّم أن فعل كذا: ما لبث.

ولكن لوطاً قد أصبح، وقد كشف الله عنه الغمة، وأحاطه بعنايته، وآزره بنصرته، لا يَأبه لهذا الوعيد، ولا يضيره هذا التهديد.

ولما انقشعت غَيَاهِبُ[١] الحزن عن لوط أمره الملائكة أن يَسْرِي هو وأهله بِقطْع من الليل، ويتركوا هذه القريةَ التي أذن الله أن ينزل بها العذاب، وَيَحُلَّ بها العِقاب، ثم نهوْه أن يصطحب معه امرأته؛ فسيُحِلّ بها ما يحل بالقوم لنفاقها ومشايعتها لهم، وأمروه أن يَدَّرع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم.

خرج لوطٌ وأهلُه، وفارق تلك القرية غير آسفٍ عليها، حتى إذا صار بعيداً عنها جاءها أمر الله، ونزل بها عذابُه، وزُلزلت الأرضُ زِلْزَالهَا، فصار عاليها سافلَها، ثم غشيت بمطر من سِجِّيل[٢]؛ فأصبحت ديارهم بَلْقعاً، وبيوتهم خاوية بما ظلموا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾[٣].

---

(١) الغياهب: جمع غيهب: وهو الظلمة.

(٢) سجِّيل: طين مطبوخ.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٧٤.